## لا تشتر العبد!

وقال عند خروجه من مصر:

[البسيط]

عِـيـدٌ بِـأَيَّـةِ حَـالٍ عُـدْتَ يَـا عِـيـدُ
بِـمَـا مَـضَـى أَمْ لِأَمْـرٍ فِـيـكَ تَـجْـدِيـدُ؟(١)
أَمَّـا الأَحِـبَّـةُ فَـالْـبَـيْـدَاءُ دُونَـهُـمُ
فَـلَـيْـتَ دُونَـكَ بِـيـداً دُونَـهَـا بِـيـدُ(٢)
لَـوْلَا الْـعُـلَـى لَـمْ تَـجُـبْ بِـي مـا أَجُـوبُ بِـهَـا
وَجْـنَـاءُ حَـرْفٌ وَلَا جَـرْدَاءُ قَـيْـدُودُ(٣)
وَكَـانَ أَطْـيَـبَ مِـنْ سَـيْـفِـي مُـعَـانَـقَـةً
أَشْـبَـاهُ رَوْنَـقِـهِ الْـغِـيـدُ الأَمَـالِـيـدُ(٤)

---

(١) العيد مناسبة فرح وسرور بعد عبادة يقوم بها المؤمنون، كأنه جائزة ومكافأة لقاء ذلك، ولكن الشاعر يُعاني من الأسى، فقد سبق أن حلّ عيد وحمل معه آلاماً ولوعة للشاعر، فهل يمكن أن يحمل معه أملاً وفرحاً أم أنه سيكون كسالفه؟

(٢) البيداء: المفازة. يحلو العيد في حال المشاركة بين الأقرباء والأحباب، لذا يتمنّى الشاعر لو كان بين أحبّته وصحبه لينعم بذلك ولكن يفصله عنهم بعد مكان يمتدّ ويمتدّ، ولذلك فإنه يتمنّى أيضاً لو أن العيد يتأخّر عن موعده، والإحساس التشاؤمي يحمل في طيّاته الخوف من قرب الأجل.

(٣) جاب المكان: قطعه. الوجناء: الناقة القوية. الجرداء: الفرس القصيرة الشعر. القيدود: الطويلة. ثمة سبب وجيه حمل الشاعر على ترك أحبّته؛ طلب المجد والرفعة، فإذا به ينهب المسافات مستعيناً بناقة صلبة قوية أو فرس جرداء تخبّ به الأبعاد.

(٤) الغيد، الواحدة غيداء: الشابّة التي تميس في مشيتها للينها ورقّة فيها. الأماليد: الناعمات الممشوقات القامات. يروى «مضاجعة» بدلاً من «معانقة». لقد اختار الشاعر معانقة سيفه تاركاً معانقة الغيد الفاتنات الشابات ورغد العيش مفضلاً عليهن طلباً لطالما عمل جاهداً على تحقيقه، ولم يتحقق؛ وهذا ما يُحزن الشاعر.

لَـمْ يَـتْـرُكِ الـدَّهْـرُ مِـنْ قَـلْـبِـي وَلَا كَـبِـدِي
شَـيْـئـاً تُـتَـيِّـمُـهُ عَـيْـنٌ وَلَا جِـيـدُ[١]
يَـا سَـاقِـيَـيَّ أَخْـمَـرٌ فـي كُـؤُوسِـكُـمَـا
أَمْ فـي كُـؤُوسِـكُـمَـا هَـمٌّ وَتَـسْـهِـيـدُ[٢]
أَصَـخْـرَةٌ أَنَـا؟ مَـا لِـي لا تُـحَـرِّكُـنِـي
هَـذِي الـمُـدَامُ وَلَا هَـذِي الأَغَـارِيـدُ؟[٣]
إِذَا أَرَدْتُ كُـمَـيْـتَ الـلَّـوْنِ صَـافِـيَـةً
وَجَـدْتُـهَـا وَحَـبِـيـبُ الـنَّـفْـسِ مَـفْـقُـودُ[٤]
مَـاذَا لَـقِـيـتُ مِـنَ الـدُّنْـيَـا وَأَعْـجَـبُـهُ
أَنِّـي بِـمَـا أَنَـا شَـاكٍ مِـنْـهُ مَـحْـسُـودُ؟[٥]
أَمْـسَـيْـتُ أَرْوَحَ مُـثْـرٍ خَـازِنـاً وَيَـداً
أَنَـا الْـغَـنِـيُّ وأَمْـوَالِـي الـمَـوَاعِـيـدُ[٦]

(١) تيّمه الحبّ: ذلّله واستعبده. لقد زهد الشاعر بمتع الحياة، فالقضاء حتّم عليه أن يسير في طريق وعر فيه دموع وأحزان، فخلا قلبه من نشوة الفرح، وغاب عن عالم المرأة وما تمثله من إغراء.

(٢) التسهيد: السهر والأرق. يُخاطب الشاعر ساقييه على طريقة شعراء الجاهلية، إنه ظامئ ولكنه أشكل عليه الأمر، فماذا يشرب؟ الخمر طعمه معلوم لديه، ولكنه الآن يستطعم شيئاً غريباً إنه الهمّ يشربه مترعاً ممزوجاً بالسهر والأرق.

(٣) المدام: من أسماء الخمرة. الأغاريد: الأغاني. لقد فقد الشاعر الإحساس بكلّ ما يحيطه من كائنات وموجودات، وتجمّد فيه كلّ شيء حتى توهّم أنه صخرة استقرّت جماداً أصمّ، فلم يعد يُحسّ بشيء حتى الخمرة فقدت فاعليتها في نفسه، وتوقّفت حاسّة الذوق لديه ولحقتها حاسّة السمع فلم يعد يفهم ماذا يدور حوله.

(٤) و (٥) الكميت: اللون الأحمر القاني المائل إلى سوادٍ، تحلو الخمرة لشاربها أن يكون إلى جانب نديم يمتزج معه روحاً وعقلاً وشعوراً، ومن السهل إيجادها، ولكن الشاعر يفتقد إلى حبيب النفس، العشير والقريب والأهل، فثمّة بون شاسع يفصله عنهم في وحشة الانفراد.

(٦) يشكو الشاعر حظه العاثر الذي قاده إلى كافور ولقي منه ما لقي من فشل ذريع، مثل =

إِنِّـي نَـزَلْـتُ بِـكَـذَّابِـيـنَ ضَـيْـفُـهُـمُ
عَـنِ الْـقِـرَى وَعَـنِ الـتَّـرْحَـالِ مَـحْـدُودُ[١]
جُـودُ الـرِّجَـالِ مِـنَ الأيْـدِي وَجُـودُهُـمُ
مِـنَ الـلِّـسَـانِ فَـلَا كَـانُـوا وَلَا الْـجُـودُ[٢]
مَـا يَـقْـبِـضُ الـمَـوْتُ نَـفْـساً مِـنْ نُـفُـوسِـهِـم
إِلَّا وَفِـي يَـدِهِ مِـنْ نَـتْـنِـهَـا عُـودُ[٣]
مِـنْ كُـلِّ رِخْـوٍ وِكَـاءِ الْـبَـطْـنِ مُـنْـفَـتِـقٍ
لا فِـي الـرِّجَـالِ وَلَا الـنِّـسْـوَانِ مَـعْـدُودُ[٤]
أَكُـلَّـمَـا اغْـتَـالَ عَـبْـدُ الـسَّـوءِ سَـيِّـدَهُ
أَوْ خَـانَـهُ فَـلَـهُ فِـي مِـصْـرَ تَـمْـهِـيـدُ؟![٥]

---

= بين يديه وراح يكيل له المديح على أمل أن ينال منه المراد، فإذا به يفرّ منه خالي الوفاض، ومع ذلك فقد كان الحسد يلاحقه حيثما حلّ وارتحل، وهو مصدر شكاته وألمه.

(١) أروح: مستريح البال. المشري: الغنيّ. لقد عبّر الشاعر عن سخرية أليمة أنه اغتنى، ومع ذلك فخزائنه فارغة ويداه لا تملكان شيئاً، فارغتان إلّا من المواعيد الكثيرة التي لا تُجدي نفعاً.

(٢) القرى: الضيافة. محدود: محجوز وممنوع. لقد أساء الشاعر الاختيار على أمل أن ينزل في ضيافة من يُحسن الضيافة ويُكرمه، ولكنه اكتشف كذب القوم، فلا هم أكرموا وفادته ولا هم تركوه حرًّا طليقاً يعود من حيث أتى بل إنهم تمسّكوا به ليُقال عنهم إنهم كرماء وفد عليهم الشاعر العظيم.

(٣) يردف الشاعر مفنّداً مسلك القوم معه، إنهم ليسوا كرماء البتّة، لأن الجود ممارسة وفعل، ولكن هؤلاء يقولون ويكذبون، لذا يدعو عليهم بالموت فلا كانوا ولا كان الجود الذي يتغنّون به.

(٤) يصوّر الشاعر مدى اشمئزازه من القوم حتى إنّ الموت يشمئزّ من النتن الذي انتشر في الأجواء لشدّة زخمه يأنف أن يستلّ أرواحهم بيده، فإذا به يستعين بعود لا قيمة له ليُخلّص الأرض ممّا يُشوهها.

(٥) اغتال: قتل غيلة. يتّهم الشاعر كافوراً بقتل الإخشيد غدراً طمعاً بالملك، وكذلك يتّهمه بخيانته، ورغم ذلك فقد انقاد المصريون له وخضعوا لحكمه ولم يثوروا عليه =

صَـارَ الْـخَـصِـيُّ إِمَـامَ الآبِـقِـيـنَ بِـهَـا
فَـالْـحُـرُّ مُـسْـتَـعْـبَـدٌ وَالْـعَـبْـدُ مَـعْـبُـودُ[١]

نَـامَـتْ نَـوَاطِـيـرُ مِـصْـرٍ عَـنْ ثَـعَـالِـبِـهَـا
فَـقَـدْ بَـشِـمْـنَ وَمَـا تَـفْـنَـى الْـعَـنَـاقِـيـدُ[٢]

أَلْـعَـبْـدُ لَـيْـسَ لِـحُـرٍّ صَـالِـحٍ بِـأَخٍ
لَـوْ أَنَّـهُ فِـي ثِـيَـابِ الْـحُـرِّ مَـوْلُـودُ[٣]

---

= وهذا من غريب الأمور، والشاعر يستنكر استسلام المصريين لسلطة كافور.
ـ والإخشيد هو: محمد بن طُغج بن جفّ، أبو بكر: مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر والشام، والدعوة فيها للخلفاء من بني العباس. تركي الأصل، مستعرب من أبناء المماليك. ولي الديار المصرية سنة ٣٢٣هـ. توفي بدمشق ودفن في بيت المقدس سنة ٣٣٤هـ = ٩٤٦م. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٢: ٤١، النجوم الزاهرة: المجلد الثالث.
ـ وكافور هو: كافور بن عبد اللّه الإخشيدي، أبو المسك. كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيديّ ملك مصر (سنة ٣١٢هـ) فنسب إليه، وأعتقه فترقى عنده. تملك مصر (سنة ٣٥٥هـ) وكان فطناً ذكياً حسن السياسة، توفي سنة ٣٥٧هـ = ٩٦٨م. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ١: ٤٣١، النجوم الزاهرة ٤: ١ـ ١٠.

(١) الآبقين، الواحد آبق: الفارّ من سيّده، المستعبد: المذلّل. المعبود: المطاع. الإمام: القائد يُؤتمّ به ويُقتدى به. يصف الشاعر كافوراً بفاقد رجولته فضلاً عن عبوديّته، وبتلك الصفات المرذولة تمكّن من أن يكون محطّ أمثاله من العبيد الفارّين من أسيادهم يأتمون به ويحتمون بظلّه، ولذا انقلبت المقاييس الإنسانية، فإذا بالعبد يُسيّد على الأحرار فيستعبدهم ويتحكّم بأمورهم.

(٢) النواطير، الواحد ناطور: القيّم على حماية الأراضي والزروع. ويقصد بذلك السادة. كما يقصد بالثعالب: العبيد، بشم: أتخم لكثرة مأكله. ويقصد بالعناقيد الأموال. السادة في مصر في غفلة وتكاسل يغطّون في نوم عميق غافلين عن اللصوص وقد اغتنى هؤلاء ورغم ذلك فإنهم يستزيدون فلا يشبعون لكثرة ما في تلك البلاد من غنًى، والأبواب مشرّعة لهم، فلا يكتفون.

(٣) ثمّة مفارقة بين الحرّ والعبد، لذا لا يمكن أن يكونا على قدم المساواة حتى لو أن العبد ولد في ديار الأحرار، فإنه سيبقى عبداً في طباعه ومشاعره وعلمه وعمله وفعله. ويُلمح مغمز تحريضيّ ليثور ابن الإخشيد ضدّ كافور، علّه يُعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه في ما سبق.

لا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ
إنَّ الْعَبِيدَ لأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ[١]
مَا كُنْتُ أحْسَبُنِي أَحْيَا إلَى زَمَنٍ
يُسِيءُ بِي فِيهِ عَبْدٌ وَهْوَ مَحْمُودُ![٢]
وَلَا تَوَهَّمْتُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فُقِدُوا
وَأَنَّ مِثْلَ أَبِي الْبَيْضَاءِ مَوْجُودُ[٣]
وَأَنَّ ذَا الأَسْوَدَ الْمَثْقُوبَ مِشْفَرُهُ
تُطِيعُهُ ذِي الْعَضَارِيطُ الرَّعَادِيدُ[٤]
جَوْعَانُ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيُمْسِكُنِي
لِكَيْ يُقَالَ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. المناكيد، الواحد منكود: من لا خير فيه. لقد وصل الحنق والغضب بالشاعر إلى أن يُبدي نصحاً لمن يرغب بشراء العبيد أن يشتري مع عبده عصاً لكي يقوّمه كلما دعت الحاجة بالضرب والتعنيف، ففي هذه الحالة يستقيم أمره ويصلح شأنه ومسلكه.

(٢) أحسبني: أظنّ. ويروى «كلب» بدلاً من «عبد». يستنكر الشاعر على نفسه كيف أنه قبل إساءة عبد له وسخريته به، ومع ذلك يُشيد به ويكيل له المديح، وكأنه لا يُصدّق نفسه أنه هو من فعل ذلك رغم أنفته وتكبّره.

(٣) الوهم حالة نفسية بين الشكّ واليقين، والشاعر كأنه لم يستفق على واقع وحقيقة، فهل هناك بشر يُحسّون ويُفكّرون ويقبلون أن يحكمهم أمثال أبي البيضاء من عبيد. وإمعاناً بسخريته من كافور نعته بأبي البيضاء، فكل ما فيه يمثل السواد في الخلقة والسلوك.

(٤) المشفر للجمل بمثابة الشفة للإنسان، ويُثقب المشفر لجعل الزمام فيه، العضاريط، الواحد عضروط: من يعمل لدى الآخرين لقاء طعامه. الرعاديد، الواحد رعديد: الجبان. يُردف الشاعر لومه للقدر ولنفسه كيف أنه عاش حتى رأى المقاييس الإنسانية تنقلب رأساً على عقب، فإذا بعبد أسود ضخم الجثّة كجمل؛ المفروض أن يُسخّر ويُذلل ليحمل الأثقال، فإذا به يتسيّد أناساً همهم الأكل والخضوع لإرادته؛ لقد استسلموا له لجبنهم وضعتهم.

(٥) إنه ادّعاء فارغ أن يدّعي كافور أن شاعراً عظيماً كالمتنبي يمدحه ويتبجّح بذلك مما =

إنَّ ٱمْـــرَأً أَمَـــةٌ حُـــبْـــلَـــى تُـــدَبِّـــرُهُ
لَـمُـسْـتَـضَـامٌ سَـخِـيـنُ الْـعَـيْـنِ مَـفْـؤُودُ[١]
وَيْـلُـمِّـهَـا خُـطَّـةً وَيـلُـمِّ قَـابِـلِـهَـا
لِـمِـثْـلِـهَـا خُـلِـقَ الـمَـهْـرِيَّـةُ الْـقُـودُ[٢]
وَعِـنْـدَهَـا لَـذَّ طَـعْـمَ الـمَـوْتِ شَـارِبُـهُ
إنَّ الـمَـنِـيَّـةَ عِـنْـدَ الـذُّلِّ قِـنْـدِيـدُ[٣]
مَـنْ عَـلَّـمَ الأسْـوَدَ الـمَـخْـصِـيَّ مَـكْـرُمَـةً
أَقَـوْمُـهُ الْـبِـيـضُ أمْ آبَـاؤُهُ الـصِّـيـدُ؟![٤]
أَمْ أُذْنُـهُ فِـي يَـدِي الـنَّـخَّـاسِ دَامِـيَـةً
أمْ قَـدْرُهُ وَهْـوَ بِـالْـفَـلْـسَـيْـنِ مَـرْدُودُ[٥]

---

= يُوهم بأنه كريم وذو فضل وهو جائع يحبس الشاعر ويأكل من ماله وهو لا يتركه يرحل ويُصرّ على ذلك.

(١) و (٢) ورد بيت قبل هذا البيت؛ بيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:

إنّ ٱمْـرَأً أَمَـةٌ حُـبْـلـى تُـدَبِّـرُهُ لَـمُـسْـتَـضامٌ سَـخِـينُ العينِ مَـفْـؤُودُ

والمستضام: المظلوم. المفؤود: الجبان الضعيف الرأي. سخين العين: الحزين. ويلمّها، كلمة تعجب تتألّف من كلمتين وي لأمها. الخطّة: الشأن. المهرية: إبل تنسب إلى قبيلة مهرة، فرع من قُضاعة. القود: طوال الأعناق من الإبل. يعجب الشاعر من الحال التي وصل إليها، وليس من طبعه التخاذل وقبول الخضوع لمن هو دونه، فكيف حصل ذلك؟ وما هي نتائج ذلك؟

(٣) المنيّة: الموت. القنديد: عصارة قصب السكر إذا جمد. يثور الشاعر على نفسه وعلى الحالة التي آل إليها أمره، إنها حالة يُرثى لها، فلا بدّ من خلاص له من هذه الحالة أهون منها موت في حرّية وكرامة لذيذ الطعم كحلاوة السكر في حلق شاربه.

(٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥١. يستغرب الشاعر حالة كافور أن يكون قد تلقّى إلهام الكرم في الأخلاق والسلوك وفضائل الأمور، وهو لم يكن حرًّا ولم يكن آباؤه ملوكاً سادة، ولذا فهو لا يمكن أن يكون على شيء من ذلك.

(٥) النخاس: بائع الرقيق من العبيد. الفلس: قطعة نقد تصنع من النحاس. يهجو الشاعر كافوراً بأنه مملوك بِيع في سوق النخاسة، وصاحبه يُنادي عليه، ومن اشتراه كان به =

أَوْلَـى الـلِّـئَـامِ كُـوَيْـفِـيـرٌ بِـمَـعْـذِرَةٍ
فِـي كُـلِّ لُـؤْمٍ وَبَـعْـضُ الْـعُـذْرِ تَـفْـنِـيـدُ[١]
وَذَاكَ أَنَّ الْـفُـحُـولَ الْـبِـيـضَ عَـاجِـزَةٌ
عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخِصْيَةُ السُّودُ؟![٢]

## إذا تذكرت!

**قال بمصر وهو يريد سيف الدولة:**

[البسيط]

فَـارَقْـتُـكُـمْ فَـإِذَا مَـا كَـانَ عِـنْـدَكُـمُ
قَـبْـلَ الْـفِـرَاقِ أَذًى بَـعْـدَ الْـفِـرَاقِ يَـدُ[٣]
إِذَا تَـذَكَّـرْتُ مَـا بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـكُـمُ
أَعَـانَ قَـلْـبِـي عَـلَـى الـشَّـوْقِ الَّـذِي أَجِـدُ[٤]

---

= من الزاهدين، فلم يزد فلسين عليه لعدم رغبته باقتنائه، وإنما اشتراه لحاجته لمن يحمل عليه.

(١) و (٢) التفنيد: التعذير واللوم. كُوَيْفير، تصغير كافور، للتحقير. يرى الشاعر أن كافوراً يستحقّ المعذرة، فهو أولى لئيم حقير يستحق المعذرة، فهو لم يتعوّد على المآثر والفضائل لدناءة أصله وحقارة عنصر العبودية فيه، وهذا أخبث هجاء وجّه لكافور. ذلك أن الأحرار يعجزون عن الإيفاء بكلّ ما تتطلّبه محاسن الأخلاق منهم فكيف بمن لم يعتد على ذلك من العبيد الذين يفقدون علائم الرجولة الحقّة في كلّ معانيها.

(٣) لقد كان فراق الشاعر لكافور نعمة، فقد أحسّ طعم الحرية وتفتّحت نفسه، فاستنشق نسيماً له طعم ورائحة، بعدما كان يُفضّل البقاء في كنف كافور رغم معاناته وآلامه، وتغير الحال أفضل من البقاء على حال واحد.

(٤) وتذكّر الآلام والمعاناة يدفع بالمرء إلى التخلّص من أسبابهما رغم مغالبة الشوق في بعض الأحيان، وهنا يتغلّب العنصر الأقوى.